

دور نظام البريد في المعارك والفتوحات الحربية في العصر المملوكي البحري

انور عوده الخالدي *

ملخص

يتناول هذا البحث دور نظام البريد في المعارك والفتوحات الحربية في العصر المملوكي البحري ؛ فقد كانت الدولة المملوكية عبارة عن حلقات متناثرة ربط بينها ذلك النظام البريدي المتكامل الذي وضع أساسه السلطان الظاهر بيبرس في وقت اشتدت فيه الهجمات المغولية والصليبية على حدود الدولة المملوكية ، وهو ما استدعي أن يتم جلب الأخبار من مواطن الصراع إلى مقر السلطنة في قلعة الجبل بالقاهرة بأقصى سرعة ليتم تحريك الجيش بناء على تلك الأخبار الواردة؛ ومن خلال البحث ثبت مدى نجاح ذلك النظام في انتصار المماليك في الكثير من المعارك الحربية ضد الصليبيين والمغول.

الكلمات الدالة: نظام البريد، الدولة المملوكية، بيبرس.

وحقيقة لم يوجه أحد من السلاطين - قبل عهد بيبرس - عنايته بالبريد، حيث كان البريد يقطع المسافة من القاهرة إلى دمشق في سبعة أيام⁽²⁾، ثم كان عليه الانتظار مدة من الزمن حتى يجد من يأخذ منه الرسالة، ثم ينتظر مدة أخرى حتى يتم إعداد الجواب المناسب لها، ويقوم السلطان بتوقيعه، ثم يعطي إليه في النهاية مما يترتب على هذا التأخير ضياع كثير من الأمور المهمة⁽³⁾.

ولما اعتلى الظاهر بيبرس عرش السلطنة قام بترتيب وتنظيم البريد على جميع الطرق والمراكز، بحيث أنه أصبح في الإمكان وصول الأخبار من القاهرة إلى دمشق في غضون أربعة أيام والعودة في مثلها⁽⁴⁾، ثم رغب في تقليل هذه المدة فركب البريد بنفسه من القاهرة إلى دمشق فوصلها في ثلاثة أيام، وألزم البريديّة بذلك وتوعد من يزيد عليها بعقوبة الصلب⁽⁵⁾، رغم أن الجيوش كانت عادة ما تقطعها في مدة شهر تقريباً⁽⁶⁾.

ففي سنة 670هـ / 1271م وردت الأخبار إلى بيبرس بإغارة المغول على عين تاب، فبعث البريد إلى القاهرة لتجهيز الجيش المملوكي، فخرج من دمشق نهار يوم الأحد الثامن عشر من شهر ربيع الأول ، فوصل القاهرة نهار يوم الأربعاء الحادي والعشرين من نفس الشهر⁽⁷⁾، وبعد ذلك بأربعة أعوام أي في سنة 674هـ / 1275م، وبينما كان الظاهر بيبرس بدمشق إذ أرسل البريد لإحضار ابنه الملك السعيد من القاهرة فخرج البريد من دمشق قبيل غروب شمس يوم الرابع والعشرين

نشأة نظام البريد على يد الظاهر بيبرس وتطور هذا النظام

يعد عهد الظاهر بيبرس من أزهى عهود البريد حيث حظي بعنايته لدرجة جعلت منه إدارة مستقلة بذاتها، كانت بمثابة همزة الوصل بين مركز القيادة في قلعة الجبل بالقاهرة وسائر الولايات ببلاد الشام والحجاز واليمن بل وداخل الحدود المصرية ذاتها، ويكفي دراسة نظام البريد بصورة متنوعة في عهده كمثال حقيقي لدراسته في تاريخ مصر الإسلامية، لأن من تلاه من السلاطين قد ساروا على نهجه في العناية بهذا النظام، فظلت سلطتهم المركزية قوية على سائر الولايات.

وكان هدف بيبرس من نظام البريد هو خدمة المصالح العليا للدولة، وذلك على غير ما وجدنا عليه أحوال البريد فيما قبل، فأصبح منذ عهده الأداة التي يستطيع عن طريقها تفقد أحوال سائر الأقاليم المختلفة، حيث صارت أخبارهم ترد إليه وتعرض عليه مرتين في الأسبوع فيطلع على ما يقوم به نواب السلطنة بكافة أنحاء البلاد، وبذا يتحكم في سائرهم فيولي من يشاء ويعزل من يشاء⁽¹⁾.

* قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة آل البيت، الأردن. تاريخ استلام البحث 2014/6/22، وتاريخ قبوله 2014/8/10.

من شهر المحرم، فوصل القاهرة قبيل غروب شمس يوم السابع والعشرين من الشهر نفسه⁽⁸⁾.

كذلك صار البريدي في عهده يقطع المسافة من القاهرة إلى الكرك في ثلاثة أيام ، وإلى البيرة . على حدود نهر الفرات . في ستة أيام ، وإلى عين تاب على حدود بلاد الروم في عشرة أيام، وإلى بلاد سبس⁽⁹⁾ في سبعة أيام، وإلى حلب في خمسة أيام، وأحياناً في أربعة أيام⁽¹⁰⁾، أما داخل الحدود المصرية فكان البريدي يقطع المسافة من القاهرة إلى قوص⁽¹¹⁾ في ثلاثة أيام، وإلى ثغر الإسكندرية في يوم واحد⁽¹²⁾.

ومما لاشك فيه أن الظاهر ببيرس لم يأل جهداً ولا مალأ في سبيل تنظيم ذلك الجهاز، حيث أنفق عليه أموالاً طائلة لا حصر لها، توزعت ما بين نفقات بناء مراكز البريد، وأموال الوقف المخصصة لها، ومرتببات عمال البريد، وبلغ من كثرتها أنها كانت كافية لملء خزانة أحد السلاطين⁽¹³⁾.

هذا وقد كان للظروف العسكرية التي منيت بها المنطقة عظيم الأثر في توجيه الظاهر ببيرس جلّ عنايته لهذا الجهاز، لمواجهة مشكلة اتساع المملكة والعمل على تأمين وسرعة قضاء الأعمال الخاصة بالسلطان، وتدعيم النظام الإداري، فعمل على إيجاد خدمة بريدية دائمة تعمل على سهولة وصول الرسائل في مسافات وأوقات مناسبة في إطار السرية والأمن المطلوب، كي يمكن التعرف على الأخبار والجوانب الأساسية في الدولة المملوكية⁽¹⁴⁾.

وهنا يتبادر إلى أذهاننا تساؤل وهو هل اقتصر الظاهر ببيرس على إحياء نظام البريد الذي كان موجوداً لدى أسلافه الخلفاء؟ أم أنه نقله قلباً وقالباً عن المغول الذين كان لديهم هذا النظام وبدرجة عالية من الكفاءة؟ أم أن البريد المملوكي كان من صنع الظاهر ببيرس ذاته؟.

حقيقة لقد كان البريد المملوكي يمثل تطوراً واستمراراً لبريد الخلفاء، غير أن إنجاز الظاهر ببيرس له لم يكن محدوداً أو قاصراً على مجرد إعادة تنظيم كيان أصابه الانهيار⁽¹⁵⁾، فنظام البريد معروف لدينا منذ العصور الإسلامية المبكرة إلا أن الإهمال تطرق إليه قبل عهد الظاهر ببيرس بحوالي ثلاثة قرون تقريباً⁽¹⁶⁾، حيث تم قطعه على يد البويهيين في منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف العاشر الميلادي، لحرمان الخليفة من أكفا وسائل الاتصال حتى يتسنى لهم وضعه تحت وصايتهم، ومن بعدهم لم يجد السلاجقة أمامهم وسيلة سوى الرسل، أما آل زنكي فقد اعتمدوا على النجابة "الهجن" التي ظلت حتى نهاية الدولة الأيوبية⁽¹⁷⁾.

ويرى سوفاجيه - Sauvaget⁽¹⁸⁾ أن الظاهر ببيرس هو المبتدع لنظام البريد، وأنه لم يستثمر أي مشروع من قبل

أسلافه الخلفاء، معتمداً في ذلك على صمت مؤرخي فترة الحروب الصليبية حول هذا النظام، حيث لم يكن لديهم أية معلومات سوى عن استخدام الحمام الزاجل في العصرين الفاطمي والأيوبي، وبعض الاستثناءات مثل إرسال رسول برسالة، مما يرجح أن ببيرس قام بأكثر من مجرد إعادة تأسيس، أو إعادة تنظيم سير العمل في نظام أصابته الفوضى، كما أعاد إلى البريد خاصية الدولة، وهي التي فقدتها على مدى ثلاثمائة عام، وقام بتنظيمها من كل الجوانب وليس فقط تبني وتطوير ما ورثه عن أسلافه الخلفاء .

وبالرغم من آراء سوفاجيه التي تجعل العمل الذي قام به ببيرس يوضع في عداد التجديد والخلق الحقيقي، إلا أنه يسوق لنا رواية ابن فضل الله العمري، التي توضح مدى استحسان ببيرس لبريد أسلافه الخلفاء، بل وأمره بالشرع في تأسيسه فيقول "ولما صار الملك إلى الملك الظاهر ببيرس، واجتمع له ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق، فعين لها نائباً ووزيراً وقاضياً وكاتباً للإتشاء، وكان عمه الصاحب شرف الدين محمد عبد الوهاب هو كاتب الإتشاء، فلما مثل لديه ليودعه أوصاه بوصايا كثيرة أكدها مواصلته بالأخبار، وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج، وقال له إن قدرت أن لاتبتي كل ليلة إلا على خبر، ولا تصبني إلا على خبر فافعل، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان الأول وأيام الخلفاء وعرضه عليه، فحسن موقعه منه وأمر به⁽¹⁹⁾.

وهكذا كان نظام البريد في عهد الظاهر ببيرس - من وجهة نظر سوفاجيه - شيئاً متطوراً عن بريد الخلفاء، وإيجاده هذه المرة شيئاً مختلفاً، فقد صار نظاماً متكامللاً لا يتوقف تنظيمه، وأداء وظائفه على مجرد ما كان قائماً من قبل⁽²⁰⁾.

والجدير بالذكر أن جهاز البريد لم يكن منذ نشأته ذا علاقة بأى شيء سوى بالدولة، وبالسultan نفسه، حيث كانت طرق المواصلات الخاصة بتلك الخدمة حكراً على السلطان وأمرائه بالدرجة الأولى، لدرجة أنه ساد شعور بين طبقات الشعب أن طريق البريد هو "طريق السلطان"⁽²¹⁾، ويكفي على سبيل المثال ما ذكره الفيومي في حوادث سنة 742هـ/1341م من أن الناصر أحمد حينما وصل إلى قلعة الجبل بالقاهرة، قادماً إليها من الكرك كان حضوره من "طريق البريد ولم يسلك الدرب الشامي"⁽²²⁾، ونتيجة لذلك كان جهاز البريد في العصر المملوكي البحري مخصصاً لما يعرف "بالمهمات السلطانية"، من قبيل نقل الأخبار والمعلومات، والأوامر ذات الطابع الحربي، والمراسلات الدبلوماسية من وإلى السلطان، وإرسال السفارات الرسمية

حالة طرق المغول أو الصليبيين لحدود المملكة وإغاراتهم عليها، فحينما وردت الأخبار إلى الظاهر بيبرس في سنة 662هـ/1263م بإغارة "هيثوم" ملك الأرمن على بلدة "هرقلة"⁽³²⁾، ومحاصرته لقلعة صرند⁽³³⁾، خرجت أوامره في الحال على أيدي البريدية إلى نواب السلطنة في حمص وحماة بسرعة تجهيز الجيش والزحف به نحو حلب، ومنع قبائل العربان ببلاد الشام من الخروج إلى البرية حتى يتسنى لهم المشاركة مع الجيش المملوكي، والذي التقى بالجيش الأرمني، وقام بتكبيده خسارة فادحة⁽³⁴⁾، وفي نفس السنة - أي في سنة 662هـ/1263م - خرجت الأوامر من قبل الظاهر بيبرس على أيدي البريدية بتجهيز الجيش والخروج به للإغارة على "عتليت وقيسارية"⁽³⁵⁾، فتوجه الأمير ناصر الدين القيصري به حتى وصل إلى أبواب عتليت، فأعمل فيها القتل والنهب والأسر، ثم توجه منها إلى قيسارية فلم تكن بأحسن حالاً من عتليت⁽³⁶⁾.

وفي سنة 666هـ/1267م خرج الظاهر بيبرس في رحلة صيد، وبالرغم من ذلك ظلت الأخبار تتواتر إليه باستمرار عن أحوال مملكته، فبلغته الأخبار عن قيام المغول بالإغارة على مدينة حلب، فأصدر أوامره على أيدي البريدية بتجهيز الجيش المملوكي والخروج به إلى بلاد الشام⁽³⁷⁾.

وفي بعض الأحيان كانت الأخبار تقطع الشك باليقين لدى بعض سلاطين المماليك، فحينما وصلت الأخبار إلى الظاهر بيبرس في سنة 668هـ/1269م بزحف المغول نحو البيرة والرحبة، أسرع بتجهيز الجيش المملوكي، وتوجه به إلى بلاد الشام بعزيمة لا تكل أو تهدأ، ولكنه وقع في حيرة حول أي الجهتين يقصد البيرة أم الرحبة؟ ولكنه لم يلبث على حيرته تلك طويلاً حيث وردت عليه الأخبار الصحيحة والمؤكد مرة أخرى برحيل المغول عن الرحبة، فقام بتركيز جل اهتمامه ناحية قلعة البيرة⁽³⁸⁾.

وفي سنة 671هـ/1272م خرج الظاهر بيبرس لتفقد أحوال المملكة ببلاد الشام، وحيثما استقر بها تواترت إليه الأخبار بإغارة المغول على قلعة البيرة، فعاد مسرعاً على خيل البريد إلى قلعة الجبل بالقاهرة بصحبة الأمير علم الدين شقير مقدم البريدية، لتجهيز الجيش المملوكي، والزحف به نحو بلاد الشام لمحاربة المغول⁽³⁹⁾.

وفي سنة 691هـ/1291م واصل المغول غاراتهم على حدود الدولة، فقاموا بالإغارة على قلعة الرحبة، فخرج البريد مسرعاً ليطالع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بتلك الأخبار، والذي أصدر أوامره في الحال بتجهيز الجيش المملوكي وخروجه إلى دمشق لدرء هذا الخطر، ولكنهم وصلوا إليها بعد نهب المغول لها⁽⁴⁰⁾.

إلى الملوك الأجانب⁽²³⁾، ففي سنة 737هـ/1336م سافر قططاى مقدم البريدية بمصر رسولا من قبل الناصر محمد بن قلاوون، ومحملاً بالهدايا العظيمة إلى أريك ملك الروم⁽²⁴⁾، أضف إلى ذلك اختصاص البريد ببعض الوظائف ذات الطابع الخاص مثل: نفي الأمراء والقضاة وغيرهم، أو استدعائهم للمثول بين يدي السلطان شخصياً لاستجوابهم فيما نسب إليهم⁽²⁵⁾، ناهيك عن الدور الأساسي الذي لعبه جهاز البريد في المعارك والفتوحات الحربية، وهو ما سوف نعرض له الآن.

دور جهاز البريد في التصدي للزحفين المغولي والصليبي

لعب جهاز البريد بأنواعه المختلفة دوراً فعالاً من خلال المعارك والفتوحات الحربية ضد المغول والصليبيين في العصر المملوكي البحري، حيث وقع على عاتقه نقل أخبار إغاراتهم المستمرة على حدود الدولة المملوكية، وكذلك خططهم القتالية، إلى مقر السلطة المركزية بقلعة الجبل بالقاهرة، وهو ما أعطى لسلاطين المماليك حق المبادرة في مباغتتهم أثناء تلك المعارك، وإحراز النصر الذي يترتب عليه سريان الطمأنينة بين كافة طبقات الشعب.

هذا وقد جرت العادة أن يطالع نواب السلطنة في سائر الولايات، سلاطين المماليك بالعاصمة بكل ما يتجدد عندهم من أخبار على أيدي البريدية تارة، وعلى أجنحة الحمام الزاجل تارة أخرى⁽²⁶⁾، ومرجع ذلك إلى اهتمام سلاطين المماليك بالأخبار والمعلومات، وحرصهم على تواترها إليهم باستمرار، فمثلاً: كان الظاهر بيبرس كثير الاهتمام بالاطلاع على أخبار أمرائه وأعيان دولته حتى أنه لم يخف عليه منها صغيرة ولا كبيرة⁽²⁷⁾، كما كان خفيف الركاب والحركة، جباراً في الأسفار والفتوحات، دائم الانتقال بين أنحاء دولته صيفاً وشتاءً⁽²⁸⁾، وكان يبدو كأنه في عدة أماكن في وقت واحد، ذلك أن رحلاته كانت تتسم بالسرية، ومن الحيل المحببة إليه أنه كان يظل مختفياً في القلعة لبضعة أيام يراقب أعمال نوابه، في الوقت الذي يسود فيه الاعتقاد بأنه قد سافر إلى بلاد الشام⁽²⁹⁾، ولذلك كانت أخبار دولته المترامية الأطراف والممتدة من أطراف حلب إلى أطراف النوبة، ترد عليه بكرة وعشيا⁽³⁰⁾، وقيل في تردده بين سائر الولايات: يوماً بمصر، ويوماً بالشام وبالفراة يوماً، ويوماً في قرى حلب⁽³¹⁾.

ومما لا شك فيه أن جهاز البريد لعب دوراً حيوياً في إعلان حالة الطوارئ القصوى للجيش المملوكي إبان ذلك العصر، حيث كانت الأوامر والمراسيم تخرج من قبل سلاطين المماليك على أيدي البريدية بتجهيزه وجعله على أهبة الاستعداد في

هذا الفتح حتى وصل البريدية إلى الناصر محمد في نفس السنة - أي في سنة 715هـ/1325م - بأخبار فتح الجيش المملوكي بحلب - لقلعة "درند" المجاورة لمطية وتدميرها⁽⁴⁹⁾. هذا وقد جرت العادة أن يتكاتف البريد البري مع بريد الحمام الزاجل في نقل الأخبار والمعلومات من أقصى مدن المواجهة مع المغول والصليبيين في البيرة والرحبة، إلى دمشق وغزة وقلعة الجبل بالقاهرة، ضماناً لتأكيد صحة هذه الأخبار وسرعة توصيلها وهو ما يعرف "بالبريد المزدوج"⁽⁵⁰⁾، وقد لعب هذا النوع دوراً مؤثراً وحيوياً خلال المعارك والفتوحات الحربية في العصر المملوكي البحري، ففي سنة 663هـ/1265م وردت الأخبار إلى الظاهر بيبرس على أيدي البريدية، بحصار المغول لقلعة البيرة أهم القلاع المملوكية على نهر الفرات - فخرج في الحال على رأس الجيش المملوكي إلى بلاد الشام، هذا والأخبار تتواتر عليه باستمرار بأن المغول قاموا بنصب المجانيق⁽⁵¹⁾ على القلعة، إلى أن وصل إلى "بينى"، ومن الطريف أنه لم يكذب يرضع رحاله بها حتى ورد عليه البريد من نائب السلطنة بدمشق، وكان بيبرس آنذاك بالحمام وقت وصوله، ومع ذلك فقد أصر على أن يقرأ عليه حتى يطمئن بنفسه على الموقف في البيرة، وكان أن قرئ عليه الكتاب وهو عريان في الحمام⁽⁵²⁾، فإذا به يتضمن أن الملك المنصور صاحب حماة قد خرج على رأس جيشه إلى قلعة البيرة بصحبة القوات التي أرسلها بيبرس إليه، فلما رأى المغول تلك الجموع الكبيرة، تركوا حصار القلعة، وفروا إلى بلادهم، حينئذ قام نائب البيرة بكتابة بطاقة على جناح الحمام الزاجل بتلك الأخبار، أخذت تشق عنان السماء حتى وصلت إلى حماة، ومنها إلى دمشق التي قام نائب السلطنة بها بإرسالها على خيل البريد وبواسطة أحد البريدية إلى السلطان في مقره "بينى" حيث قرأت عليه⁽⁵³⁾.

صور نقل الأخبار في عهد المنصور قلاوون

هذا وقد تجلت أروع صور نقل الأخبار في عهد المنصور قلاوون، الذي سار على نهج الظاهر بيبرس في العناية بجهاز البريد، وظهر ذلك واضحاً خلال معركة حمص سنة 680هـ/1281م حين تعاون جهاز البريد بكافة أنواعه ضد المغول بحيث قلب موازين المعركة لصالح المماليك، وكان المغول قد جمعوا حشوداً هائلة، ووضعوا خططهم الحربية، دون أن يفطنوا إلى وجود أحد "عيون" المنصور قلاوون بين ثنايا صفوفهم، فبينما كان الفريقان على أهبة الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة، إذا بأحد الجنود يقفز من معسكر المغول إلى حماة ويطلب من نائبها أن يقوم في الحال بإرسال

وفي سنة 698هـ/1298م وصلت الأخبار إلى الناصر محمد بن قلاوون، بإغارة المغول على حدود بلاد الشام فأمر بتجهيز الجيش المصري، ثم أرسل بعض الأمراء على خيل البريد إلى الأمير قبجق نائب السلطنة بدمشق لتجهيز الجيش الشامي والتوجه به صوب حلب⁽⁴¹⁾، كما أرسل إلى الملك المظفر صاحب حماة بتجهيز جيشه هو الآخر، فخرج به من حماة حتى وصل إلى "معرة النعمان"، ثم حدث تراخي في وصول الأخبار إليه فعاود أدراجه مرة أخرى إلى حماة، ثم لم يلبث أن وردت عليه الأخبار بتحريك الجيش ثانية، فكان الجيش المملوكي بحماة صار "رهيناً بوصول الأخبار"⁽⁴²⁾.

وفي سنة 702هـ/1302م وصلت الأخبار على أيدي البريدية من حلب بأن غازان خان ملك المغول قد قرر الزحف على بلاد الشام، وأنه وصل بجيشه إلى نهر الفرات وأصبح على مشارف قلعة الرحبة، فاتفق الناصر محمد بن قلاوون مع الأمراء على تجهيز الجيش وخروجه صوب بلاد الشام⁽⁴³⁾، ثم لم يلبث المغول أن كرروا محاولتهم الإغارة على حدود المملكة مرة أخرى في سنة 708هـ/1308م فقام البريدية بحلب بنقل تلك الأخبار إلى الناصر محمد الذي سارع بتجهيز الجيش وخرج به لملاقاتهم، هذا والأخبار تتواتر عليه أثناء الطريق، حيث هبط الحمام الزاجل عليه بالبطائق ليخبره بأن المغول قاموا بنهب قلعة كركر، فاستمر الجيش المملوكي في زحفه حتى لحق بالجيش المغولي وألحق به هزيمة منكرة، وقام باسترداد ما استولوا عليه من قلعة كركر⁽⁴⁴⁾، ثم حاول المغول في عهد ملكهم القوي خدابنده الثأر لهزائمهم المتوالية، فقاموا بالإغارة على مدينة الرحبة في سنة 712هـ/1312م، وحينما وصلت تلك الأخبار إلى الناصر محمد أصدر أوامره إلى نواب السلطنة ببلاد الشام بتجهيز الجيش المملوكي، ولكن لم يلبث أن جاء البريدية بأخبار رحيل المغول عن الرحبة بعد حصارها ما يقرب من شهر⁽⁴⁵⁾، وكان أبو الفدا - المؤرخ الشهير - صاحب حماة بمجرد أن وصل إليه الأمر بتجهيز الجيش، نجد أنه سارع بالخروج به حتى وصل مشارف حلب، ثم أرسل الكشافة لحصد الأخبار عن تحركات المغول⁽⁴⁶⁾.

وفي أواخر سنة 714هـ/1315م خرجت الأوامر من قبل الناصر محمد بن قلاوون على أيدي البريدية إلى الأمير تتكز نائب السلطنة بدمشق، بتجهيز الجيش المملوكي والتوجه به صوب حلب، فتوجه به مع مطلع سنة 715هـ/1315م قاصداً "لمطية" في بلاد الروم، فحضر عليها الحصار حتى سقطت في يده وعاد الجيش أدراجه إلى دمشق⁽⁴⁷⁾، ثم خرج الأمير سيف الدين قجليس على خيل البريد إلى قلعة الجبل بالقاهرة لبشارة الناصر محمد بهذا الفتح⁽⁴⁸⁾، ولم يمر وقت طويل على

بالهزيمة في أول الأمر، فسرحت الطيور بالبطائق وهي ملطخة بالسواد فانتشر الخوف والفرع بين أهل دمشق، وعندما تحقق النصر للمماليك في نهاية المعركة، قاموا بتسريح الحمام الزاجل المحلى بالعطور إلى سائر البلاد⁽⁵⁷⁾، ولا يختلف الحال كذلك مع كتب البريد التي يحملها البريدية، حيث كانت هي الأخرى تخلق؟؟؟ بالمسك والعطور الزكية، بدليل ما حدث في سنة 691هـ/1292م حيث قام الأشرف خليل بن قلاوون بفتح قلعة الروم، فتم إرسال الكتب على أيدي البريدية إلى دمشق وغيرها من سائر البلاد، وقد جاء فيها "وسار بمخلقات البشائر في كل قطر بريده..."⁽⁵⁸⁾، كما قال ابن عبد الظاهر شعراً بتلك المناسبة :

وأبشر وبشر والى سائر الأمص

ار فاكنتك عنك واستكتب

وخلق الكتب كأسوارها

بأصغر من رنك المذهب⁽⁵⁹⁾

وعلى أية حال واصل جهاز البريد نشاطه في عهد المنصور قلاوون، ففي سنة 684هـ/1285م خرج السلطان المنصور على رأس الجيش المملوكي لفتح حصن المرقب، فقام بحصاره مدة ثمانية وثلاثين يوماً حتى سقط في يده، فخرج الحمام الزاجل حاملاً بطائق هذا الفتح إلى سائر أنحاء البلاد، ثم تبعه خروج البريدية بتلك الأخبار لتأكيد صحتها، فأقيمت الزينة في أنحاء الدولة المملوكية⁽⁶⁰⁾.

دور جهاز البريد في عهد الأشرف خليل بن قلاوون

وفي عهد الأشرف خليل بن قلاوون لعب جهاز البريد دوراً فعالاً في إسقاط عكا آخر القلاع الصليبية ببلاد الشام، فحين عزم الأشرف على فتحها في سنة 690هـ/1291م - تنفيذاً لرغبة والده قبل وفاته - خرجت أوامره على أيدي البريدية إلى نائب السلطنة بدمشق للقيام بتجهيز الأسلحة الجماعية الثقيلة مثل المجانيق وغيرها من الآلات التي تستخدم في الحصار، وطلب منه التوجه بها صوب مدينة عكا، التي لم تستطع الصمود أمام ذلك الحصار المحكم فسقطت في يد المماليك⁽⁶¹⁾، وخرج الحمام الزاجل ببطائق هذا الفتح إلى دمشق⁽⁶²⁾، ثم تبعه خروج البريدية بالبشرى إلى سائر نواحي البلاد⁽⁶³⁾، وفي نفس السنة - أي في سنة 690هـ/1291م - أصدر الأشرف خليل - أثناء إقامته بدمشق - أوامره إلى الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب السلطنة بدمشق بالتوجه لحصار برج صيدا فقام بحصاره حتى سقط في يده، ثم عاد إلى دمشق على خيل البريد كي يلحق بالسلطان قبل خروجه إلى القاهرة ليخبره بهذا الفتح⁽⁶⁴⁾، ثم لم يلبث طويلاً

بطاقة على جناح الحمام الزاجل إلى المنصور قلاوون يخبره فيها بأن عدد جيش المغول ثمانون ألفاً، وأن ميمنتهم قوية، وهم عازمون على اختراق قلب الجيش المملوكي، ولم يكتف ذلك الشخص بنقل الأخبار فحسب، بل إنه تعدى ذلك إلى وضع الخطة القتالية للجيش المملوكي ضد نظيره المغولي، فطلب من السلطان أن يقوي ميسرة الجيش، ويحترز على المؤخرة، وبالفعل شق الحمام الزاجل عنان السماء حاملاً تلك الأخبار إلى السلطان الذي لم يتوان عن تنفيذ كل ما جاء بها من معلومات، ووضعها موضع التنفيذ، فكان النصر حليف المماليك، وانقلب المغول على أعقابهم مهزومين بعد أن وضعوا نهايتهم بأيديهم، وخرج الحمام الزاجل حاملاً بطائق النصر في معركة حمص من "القرتين" إلى دمشق، ثم توالى قدوم البريدية بأخبار النصر أيضاً إلى قلعة الجبل بالقاهرة، وبذلك سرت الطمأنينة بين كافة طبقات الشعب، وأقيمت الزينة في سائر نواحي المملكة⁽⁵⁴⁾، وبعد انتهاء المعركة وصلت الأخبار مرة أخرى على جناح الحمام الزاجل من داخل حصن الأكراد إلى المنصور قلاوون بأن المغول قرروا إرسال فرقة من جيشهم المهزوم إلى داخل طرابلس للانقضاض على مؤخرة الجيش المملوكي، فأعطى السلطان أوامره إلى نائب طرابلس بعدم مغادرتها مطلقاً، وعليه أن يرسل الحمام الزاجل بالبطائق حال رؤية تلك الفرقة المغولية، وبالفعل وصل الحمام الزاجل إلى السلطان بأخبار خروج مجموعة من الأشخاص في زي المغول، ولكن وردت الأخبار المؤكدة والصحيحة إلى المنصور قلاوون من المكاتبين والمناصحين بطرابلس، بأن ذلك لم يكن إلا خدعة من الصليبيين الذين تتكروا بزي المغول لإحداث التشويش والاضطراب داخل صفوف المماليك⁽⁵⁵⁾.

وهنا تطالعنا المصادر المملوكية بظاهرة طريفة، حيث جرت العادة عند انتصار الجيش المملوكي في إحدى المعارك الحربية، أو القيام بفتح إحدى القلاع والحصون، أن يقوم القادة بتسريح الحمام الزاجل بالبطائق عقب انتهاء المعركة، على أن يكون هذا الحمام أزرق أو أبيض اللون، ومحلى هو والبطائق بأجود أنواع المسك والعطور الزكية مثل الزعفران، كإشارة إلى النصر على العدو، حتى إذا ما رآه الناس عن بعد سرت الطمأنينة بينهم، وأقاموا الزينة في سائر البلاد⁽⁵⁶⁾، وذلك على النقيض تماماً في حالة انتكاستهم حيث كان الحمام الزاجل يلطخ بالسواد، بحيث يصير رؤيته دليلاً على هزيمة الجيش المملوكي، وبالتالي سريان الخوف والاضطراب بين الناس وليس أدل على ذلك مما وقع خلال معركة حمص سنة 680هـ/1281م في عهد المنصور قلاوون حين منى المماليك

حتى هبط الحمام الزاجل بالبطائق التي تتضمن فتح مدينتي بيروت وعثليث⁽⁶⁵⁾.

دور جهاز البريد في عهد الناصر محمد بن قلاوون

وفي أثناء فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون الثانية، وقعت معركة من أعظم المعارك الحربية في تاريخ دولة المماليك البحرية ضد المغول، وهي معركة "مرج الصفر" وذلك في سنة 702هـ/1303م، ولعب فيها جهاز البريد دوراً فعالاً وحيوياً، فبعد أن ورد البريد في سنة 699هـ/1299م حاملاً أخبار الهزيمة القاسية التي مني بها الجيش المملوكي⁽⁶⁶⁾ في معركة "وادي الخزندار" التي أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن جهاز الاتصالات هو اللبنة الأولى في إحراز النصر، فقبل تلك المعركة حدث اضطراب في وسائل نقل الأخبار عند المماليك بحيث لم يكن لديهم أية معلومات عن الجيش المغولي حتى أنه "لم يكن أحد يأتي بخبر شاف، بل صارت الأخبار مضطربة"⁽⁶⁷⁾، وأستغل المغول تلك الفرصة وأخذوا عن طريق المكر والخديعة ييثون الأخبار الكاذبة عن هروبهم ورحيلهم إلى بلادهم، وغيرها من تلك الحيل التي دخلت على الجيش المملوكي فمني بهزيمة منكرة⁽⁶⁸⁾، وأخذ الناصر محمد يستعد من جديد للثأر لهزيمته السابقة عن طريق نشاط الجهاز الإعلامي في حصد كل صغيرة وكبيرة عن الجيش المغولي، ففي سنة 702هـ/1303م وصلت الأخبار على أيدي البريدية من حلب بأن غارات خان ملك المغول جهز جيشاً جباراً للزحف نحو بلاد الشام، فأصيب الناس في دمشق بحالة من الخوف والفرع لسابق معرفتهم بأفعال المغول الوحشية، وشرعوا في مغادرة المدينة بأقصى سرعة، هنالك لعب الحمام الزاجل دور العامل النفسي في تهدئة نفوس كافة طبقات الشعب، ونشر الطمأنينة بينهم ففي أثناء فترة الاستعداد للمعركة هبط الحمام الزاجل بالبطائق من الناصر محمد إلى أهل دمشق يخبرهم فيها بوصول الجيش إلى مرج الصفر، وأوصاهم بحفظ قلعة دمشق وأسوارها، وطلب منهم الابتغال إلى الله بالدعاء لهم بالنصر ثم تلاقى الجيشان في معركة حامية الوطيس، وانتصر المماليك انتصاراً حاسماً، وبعث الناصر محمد ببطاقة أخرى على جناح الحمام الزاجل إلى دمشق تخلى فيها عن صفة الإيجاز، وأسهب في وصف المعركة قائلاً : بأنها وقعت من عصر يوم السبت، إلى الساعة الثانية من نهار الأحد، وأن الجيش المملوكي كان يعمل السيف في رقاب المغول ليلاً ونهاراً، حتى أنهم لجأوا للاعتصام بالجبال، إلا أنها لم تكن كافية لحمايتهم من

بطش المماليك⁽⁶⁹⁾، وبعد أن أكتمل النصر للمماليك خرجت البشرية على أيدي البريدية، ثم أعقبهم خروج الحمام الزاجل ببطائق النصر إلى سائر القلاع المملوكية، ودمشق، وغزة⁽⁷⁰⁾، ومن غزة إلى قطب حيث عهد إليها إلى أحد البريدية بنقل بطاقة الحمام الزاجل على خيل البريد إلى قلعة الجبل بالقاهرة، التي قامت بدق بشارت النصر على الفور⁽⁷¹⁾.

أوضاع البريد في أواخر دولة المماليك البحرية

ومع اقتراب دولة المماليك البحرية من نهايتها، بدأ التدهور يتطرق إلى هذا الجهاز، وأخذ دوره يتقلص تدريجياً في نقل أخبار الغارات التي منيت بها الدولة إبان تلك الفترة، وهو ما عاد عليها بالوبال، خاصة مع ازدياد نشاط الصليبيين متمثلاً في القبارصة، وليس أدل على ذلك مما وقع من غزو مدينة الإسكندرية سنة 767هـ/1365م فقد طرق الصليبيون بزعامة ملك قبرص أبواب تلك المدينة في يوم الأربعاء 20 محرم، في حين لم يصل خبر هذا الغزو إلى القاهرة إلا في يوم السبت 23 محرم، وقد أتاح هذا التأخير في وسائل الاتصال، أن يطلق الصليبيون أيديهم بالسلب والنهب فيها لمدة أسبوع، بحيث أن النجدة التي أرسلت إليها لم تجد الوقت الكافي للحاق بهم بعد أن غادروا المدينة فعلياً⁽⁷²⁾، وحينما حمل البريدية أخبار هذا الغزو إلى بلاد الشام، شرع نائبها في إلقاء القبض على النصارى وحبسهم بقلعتها ومصادرة أملاكهم⁽⁷³⁾.

إعادة تنظيم البريد وإسهاماته في عهد الأشرف شعبان

هذا وقد شهد عهد الأشرف شعبان عملية إعادة تنظيم لجهاز البريد بعد الكبوة التي ألمت به منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون، وعاد يمارس نشاطه من جديد، ففي سنة 776هـ/1375م قام نائب السلطنة بدمشق بإرسال بطاقة على جناح الحمام الزاجل إلى الأشرف تتضمن خروج الجيش بحلب وقيامه بفتح بلاد سيل، والتي كثيراً ما تحالف صاحبها مع المغول، ثم وصلت أخبار هذا الفتح أيضاً على أيدي البريدية من قبل نواب السلطنة، تأكيداً لصحة هذه الأخبار مما يبين مدى التعاون بين البريد البري وبيد الحمام الزاجل⁽⁷⁴⁾.

ومن الجدير بالذكر أن البريد المزدوج قد ساهم أيضاً في إنقاذ بعض سلاطين المماليك من الوقوع في براثن المكر والخديعة التي قد يتعرضون لها من قبل أحد الملوك الأجانب، ففي سنة 703هـ/1304م تحيل ملك برشلونة على الناصر محمد بن قلاوون، لأخذ أحد الأسرى الأجانب منه، فأرسل من قبله رسولا إليه بحجة طلب الشفاعة في النصارى بمصر،

نحو الشاطئ⁽⁷⁸⁾.

وفي سنة 780هـ/1378م قصد الصليبيون مدينة طرابلس في غارة بحرية مكونة من عشرة مراكب، فوصلت أخبارها إلى المنصور قلاوون على أيدي البريدية، وقد استبسل الأمير يلبيغا الناصري نائب طرابلس في محاربتهم حتى قتل منهم أعدادا ضخمة وولى الباقيون وجوههم شطر بلادهم بعد أن حاقت بهم هزيمة منكرة⁽⁷⁹⁾.

وهكذا كان لنظام البريد الدور البارز في المعارك الحربية التي جرت في ذلك العصر ضد كلا من الصليبيين والمغول، وكان له أعظم الأثر في الانتصارات التي حققها الجيش المملوكي آنذاك؛ وهو ما ساهم في المحافظة على توطيد أركان الدولة المملوكية لفترة طويلة وحمل حدودها من غزو أعدائها، وإيقاف الزحفين الصليبي والمغولي نحو المشرق الإسلامي في وقت مبكر.

الخاتمة

أدى جهاز البريد دوراً مميزاً في الدولة الإسلامية منذ دخوله على يد معاوية بن أبي سفيان في الدولة الإسلامية بكل مراحلها، وكفي للتدليل على أهميته أن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية تنبه - حين اقترب العباسيون من النصر - إلى أنه ارتكب خطأ فادحاً بإهماله للبريد.

وفي الدولة المملوكية فإن البريد حظى بعناية بالغة من السلطان الظاهر بيبرس فأنفق أموالاً عليه طائلة انعكست على سرعة إيصال الرسائل بأوقات قياسية، أما الدور الحقيقي والعملي لجهاز البريد فقد برز في الحروب ضد المغول والفرنجية التي كانت قد غصت بها فترة السلطان الظاهر بيبرس، وكان الحمام الزاجل هو الطرف المساعد وهو ما اصطلاح على تسميته ب(البريد المزدوج)، وما من شك في أن الانتصارات التي حققها المماليك سواء في عهد الظاهر بيبرس أو الأشرف خليل أو المنصور قلاوون لم تكن لتتم لولا نضوج جهاز البريد واكتماله بفعل الرعاية والانفاق التي حظي بها من السلاطين.

بالإضافة إلى العفو عن ذلك الأسير موهماً إياه بأن ذلك الأسير قد توفي أبواه ولم يتبق لرعايته سوى أخته - وكان كاذباً في أقواله - فدخلت هذه الحيلة على الناصر محمد في أول الأمر، وقام فعلاً بإرسال ذلك الأسير بصحبة الرسول إلى الإسكندرية تمهيداً لرحيلهما، ولكن سرعان ما انكشفت هذه المؤامرة، فقام السلطان في الحال بإرسال الحمام الزاجل حاملاً البطائق إلى والي الإسكندرية يطلب منه منع الرسل من السفر، وردهم إلى الإسكندرية إن كانوا قد سافروا بالفعل، والقبض على الأسير المطلق سراحه لديهم، وإرساله إلى القاهرة على خيل البريد، ثم تبع إرسال بطاقة الحمام الزاجل، خروج أحد البريدية للأمر نفسه، فوصلت البطاقة أولاً وتم منع الأسير من السفر ثم تولى البريدية إحضاره إلى السلطان بقلعة الجبل بالقاهرة⁽⁷⁵⁾.

وفي بعض الأحيان نجد أن عمال جهاز البريد أنفسهم قد اشتركوا في فتح بعض الحصون المنيعة، ولعبوا فيه دوراً رئيساً، ففي سنة 673هـ/1274م كثر تعدى صاحب حصن القصير - أقوى حصون إنطاكية - على الهدنة والعهود الموقعة بينه وبين الظاهر بيبرس، فأصدر بيبرس أوامره بالقبض عليه تمهيداً لفتح ذلك الحصن، وندب لتلك المهمة الأمير علم الدين شقير مقدم البريدية بمصر، والأمير سيف الدين بلبان الدوادار المشرف على القصاد، فخرج الاثنان متتكرين في صورة شخصين متوجهان إلى صاحب القصير لإخباره بقدوم الظاهر لزيارته، ففرح لذلك وقام بتجهيز ما يليق بالظاهر بيبرس وخرج للقائه، فلما اقترب منه قام بتقييل الأرض بين يدي بيبرس، فجثم فوقه بلبان الدوادار وشقير البريدية وأركباه على أحد الخيول وتوجها به إلى دمشق حيث حبس بقلعتها⁽⁷⁶⁾.

كذلك لم يكن جهاز البريد بنقل الأخبار المتعلقة بالغارات البرية على حدود المملكة، بل وجدت هناك بعض الغارات البحرية من قبل الصليبيين على سواحل الدولة، ففي سنة 698هـ/1299م طالع جهاز البريد الناصر محمد بن قلاوون بأخبار غارة بحرية من حوالي ثلاثين بطسة⁽⁷⁷⁾ على سواحل بيروت، كل واحدة منها تحتوي على سبع مائة مقاتل، وقد تجمع أهل البلدة لمقاتلتهم، ثم لعبت الظروف الجوية دورها حيث هبت على تلك المراكب رياحاً عاصفة جعلتها حطاماً وألقتها

الهوامش

الزهور في وقائع الدهور، ج1، ص 108؛ Thourau, The Lion of Egypt Sultan Baybars, Trans. P.M. Holt, New York 1987, P. 104; Fouad Abou Khater, Shagar al_Dorr et Baibars, Le Caire 1951, P. 221; Mustafa,

(1) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 ق 2، ص 446؛ الخطط المقرئزية، ج1، ص367؛ ابن إياس، بدائع

- 324 -

- المعطار في خبر الأقطار، ص592.
- (33) قرية من قرى صور من سواحل بحر الشام. انظر: ياقوت، معجم البلدان، باب الصاد والراء وما يليهما، ص351.
- (34) المقرئزي، السلوك، ج1 ق2، ص511، 510.
- (35) قيسارية مدينة بالشام على ساحل البحر كبيرة عظيمة بينها وبين يافا ثلاثون ميلا وكانت من امنع مدن فلسطين. انظر: الحميري، الروض المعطار، ص486.
- (36) المقرئزي، السلوك، ج1 ق2، ص513.
- (37) المقرئزي، السلوك، ج1 ق2، ص564.
- (38) شافع بن علي، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، ص151.
- (39) المقرئزي، السلوك، ج1 ق2، ص604-605.
- (40) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص243؛ المقرئزي، السلوك، ج1 ق3، ص777؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات المعروف بـ "تاريخ الدول والملوك"، ج8، ص135.
- (41) المقرئزي، السلوك، ج1 ق3، ص852.
- (42) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، مج2 ج7، 1325هـ، ص50.
- (43) المقرئزي، السلوك، ج1 ق3، ص930.
- (44) المقرئزي، السلوك، ج2 ق1، ص42. وكركر: حصن قرب ملطية بينها وبين آمد، وبالقرب منه حصن الران. انظر: ياقوت، معجم البلدان، ص2329.
- (45) المقرئزي، السلوك، ج2 ق1، ص119؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص34، 35.
- (46) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، مج2 ج7، ص82.
- (47) ابن أبي الفضائل، تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه E.Blouchet, Patrologia Orientalis, XII, XIV, XXII, Paris, 1919.
- أعيان العصر وأعوان النصر، ج1، ص286؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص73، 71.
- (48) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص162.
- (49) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص760.
- (50) Thorau, The Lion of Egypt, P.105; Syedah sadeque, Development of Barid, P.182.
- (51) اسم أعجمي لأن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية، وهي من أسلحة الحصار، وتقدمت صناعتها على أيدي المماليك، ويوجد منها أنواع عديدة مثل المنجنيق ذو الزيار، ومنجنيق الشعر، والمنجنيق المقلاعي وغيرها. للمزيد عنها أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص143؛ علي إبراهيم حسن، دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، ص309؛ أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ج1، ص201.
- (52) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص120-121؛ شافع بن علي، حسن المناقب، ص87؛ المقرئزي، السلوك، ج1 ق2، ص523-524؛ Sauvaget, La Post, P.17; Thorau, The Lion, P.105.
- (53) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص121؛ بيبيرس الدوادار، مختار الأخبار، ص29؛ النويري، نهاية الأرب، ج30، ص263؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص331-332؛ المقرئزي، السلوك، ج1 ق2، ص524؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، ص396 هذا وقد ذكر شافع بن علي أن الظاهر بيبيرس حين ورد عليه البريد كان في "بيسان" انظر: شافع بن علي، حسن المناقب، ص87.
- (54) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، حيدر آباد 1961، ص94-95؛ بيبيرس الدوادار، التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص101-102؛ الدواداري، كنز الدرر، ج8، ص244؛ النويري، نهاية الأرب، ج31، ص32؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص295؛ ابن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 4977 تاريخ)، ورقة 327؛ المقرئزي، السلوك، ج1 ق3، ص691-692، ص696-697؛ العيني، عقد، ج2، ص272؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج7، ص219-220؛ الحلبي، أعلام النبلاء، ص333-334.
- (55) شافع بن علي، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص73-74.
- (56) بيبيرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج9، ص183؛ التحفة المملوكية، ص101؛ الدواداري، كنز الدرر، ج8، ص244؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص331؛ المقرئزي، السلوك، ج1 ق3، ص696؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج7، ص220؛ Syedah Sadeque, Development of Al-Barid, P.182.
- (57) الدواداري، كنز الدرر، ج8، ص245؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص331.
- (58) الدواداري، كنز الدرر، ج8، ص327؛ النويري، نهاية الأرب، ج31، ص233؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج8، ص139؛ ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص388.
- (59) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص82.
- (60) الجزري، حوادث الفترة بين سنتي 682-687هـ، ص52.
- (61) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص316؛ ابن بهادر، فتوح النصر، ورقة 361؛ العيني، عقد الجمان، ج3، ص54، 56.
- (62) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج8، ص119.
- (63) شافع بن علي، الفضل المأثور، ص178.
- (64) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص212؛ صالح بن يحيى، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحريين من بني الغرب، ص42؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج8، ص121.

- (65) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص384.
- (66) بيبس الدوادار، التحفة الملوكية، ص157.
- (67) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص470.
- (68) الدواداري، كنز الدرر، ج9، ص16.
- (69) الذهبي، دول الإسلام، ج2، ص235؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، ج27، ص386؛ مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص113؛ الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص85؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص25؛ العيني، عقد، ج4، ص242؛ دهمان، ولادة دمشق في عهد المماليك، دمشق، 1984م، ص138-139.
- (70) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص113؛ المقرئ، السلوك، ج1 ق3، ص936؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج8، ص163؛ الصياد، الشرق، ص303.
- (71) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص114.
- (72) النويري السكندري، الإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، ج2، ص136؛ المقرئ، السلوك، ج3 ق1، ص104 ذكر المقرئ أن خبر الغزو
- وصل إلى الأمير يلبغا في يوم السبت 24 المحرم، وأن دخول الصليبيين للمدينة كان يوم الأربعاء 21 المحرم.
- (73) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص323.
- (74) المقرئ، السلوك، ج3 ق1، ص237؛ نبيل محمد عبد العزيز، الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية المجلد 22، 1975م، ص66.
- (75) العيني، عقد الجمان، ج4، ص305-307.
- (76) شافع بن علي، حسن المناقب، ص156-157.
- (77) نوع من المراكب كبيرة الحجم، تشتمل على عدة طبقات، وتنتسج لما يقرب من سبعمئة مقاتل، ولها أكثر من أربعين شراعاً، وكانت تستخدم في الحرب والتجارة. انظر: أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية، ج1، ص215؛ النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية 1974م، ص14.
- (78) ابن أبي الفضائل، النهج السديد، ص464-465؛ المقرئ، السلوك، ج1 ق3، ص875.
- (79) المقرئ، السلوك، ج3 ق1، ص335.

المصادر والمراجع

المصادر

أ: المخطوطة

- ابن بهادر، محمد بن محمد المؤمني الشافعي ت(877 هـ- /1473م)، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 4977).
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي ت(770 هـ /1368م)، نثر الجمان في تاريخ الأعيان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 1746).

ب: المطبوعة

- ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي ت(930هـ/1524م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، 1311هـ.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ت(874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج7، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1950م.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله بن رشيد السعدي المصري ت(620هـ / 1223م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر سيدة صادق 1956، باكستان.
- _____، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق: مراد كامل 1961، القاهرة.

ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى ت(749هـ/1348م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين 1988م، بيروت.

_____، مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، ج27، إصدار فؤاد سركين 1988، فرانكفورت.

ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم ت(684هـ/1285م)، تاريخ الملك الظاهر، بإعتناء: أحمد حطيط 1983م، طبع وإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت(735هـ/1334م) تاريخ ابن الفرات المعروف بـ "تاريخ الدول والملوك"، ج8، تحقيق: قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين 1939، 1942م، الجامعة الأمريكية، بيروت.

ابن أبي الفضائل، المفضل ت(759هـ/1358م)، تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه E.Blouchet, Patrologia Orientalis, XII, XIV, XXII, Paris, 1919.

ابن الفوطي، عبدالرزاق بن أحمد الصابوني المروزي ت(723هـ/1323م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد، 1351هـ.

ابن كثير، اسماعيل بن عمر ت(774هـ/1372م)، البداية والنهاية، ج14، القاهرة، 1358هـ.

السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تحقيق عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، 1976، الرياض.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن ابيك ت (764هـ/1362م)، أعيان العصر وأعوان النصر، ج1، إصدار: فؤاد سزكين، 1990، فرانكفورت.

العيني، بدر الدين محمود ت (855هـ/1451م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، تحقيق: محمد محمد أمين 1987، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

القلقشندي، احمد بن علي ت (821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ط1، تحقيق يوسف علي الطويل 1987، دار الفكر، دمشق.

مؤلف مجهول ت (742هـ/1341م)، تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زيتشتين 1919، لندن، بريل.

المقريزي، احمد بن علي ت (845هـ/1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق 2، تحقيق: محمد مصطفى زيادة 1934، القاهرة.

_____، الخطط المقريزية، ج1، مطبعة النيل، القاهرة، 1326.

النويري، شهاب الدين احمد ت (733هـ/1232م) ، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد عبدالهادي شعيرة ، مراجعة محمد مصطفى زيادة، 1990، القاهرة.

النويري، محمد بن قاسم بن محمد ت (775هـ/1372م)، الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية 1973، حيدر آباد، الهند.

المراجع العربية

حسن، علي إبراهيم 1967، تاريخ المماليك البحرية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

سرهنك، اسماعيل، 1314، حقائق الأخبار عن دول البحار، القاهرة.

الصياد، فؤاد 1987، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة.

الطراونة، طه ثلجي 1981، مملكة صفد في عهد المماليك، بيروت.

عاشور، فايد حماد 1972، التنظيمات العسكرية المغولية والملوكية، رسالة دكتوراه غير منشورة بآداب عين شمس، القاهرة.

عبد العزيز، نبيل محمد 1975، الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 22.

عبد الرازق، أحمد 1990، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ج1، القاهرة.

النخيلي، درويش 1974، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية.

بن الحسين، صالح بن يحيى بن صالح ت (850هـ/1447م)، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بنى الغرب ، تحقيق: لويس شيخو ، 1898، بيروت

أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل ت (732هـ/1331م)، المختصر في أخبار البشر، مج2 ج7، طبعة بيروت 1961.

أبو شامة المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل ت (665هـ/1266م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، مطبعة النيل القاهرة، (1287 - 1288هـ).

الأسدي، محمد بن محمد بن خليل ت (بعد 854 هـ /1450م)، التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبدالقادر طليمات، 1968، القاهرة.

بيبرس المنصوري، ركن الدين بيبرس المنصور الدوادار ت (725هـ/1324م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج9، تحقيق زبيدة عطا، 1989، الرياض.

_____، التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح 1987م، ط1، الدار المصرية اللبنانية، بيروت.

_____، مختار الأخبار، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان 1993، القاهرة.

الجزري، شمس الدين محمد بن ابراهيم ت (738هـ/1348م)، حوادث الفترة بين سنتي (682-687هـ)، نشر وتعليق أولرخ هارمان 1969، فرايبرج.

الحلبي، محمد راغب الطباخ الحلبي ت (1389هـ/1969م)، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، 1984.

الحموي ياقوت ، شهاب الدين ابو عبدالله الرومي ت (626هـ/1228م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٥٥م.

الحميري، محمد بن عبدالمنعم ت (900هـ/1500م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس 1984م، بيروت، مكتبة لبنان.

الدواداري، ابو بكر بن عبدالله بن ابيك ت (736هـ/1335م)، كنز الدرر وجامع الغرر ، ج8 ، تحقيق : أولرخ هارمان ، 1971، القاهرة .

_____، كنز الدرر ، ج9 ، تحقيق هانس روبرت روبر 1960، القاهرة.

الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد ت (748هـ/1347م) ، دول الإسلام، ج2 ، تحقيق حسن إسماعيل مروة ، تقديم محمود الأرناؤوط ، 1999، بيروت.

_____، الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور ، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري ، 1998 ، بيروت.

شافع بن علي بن عباس ت (730هـ/1330م) ، حسن المناقب

Sadeque, Syedah, 1969 Development of Al – Barid, or Mail-post during the Reign of Baybars I of Egypt (1260-1276) JASP, 14.

Sauvaget, 1941 La Post aux chevaux dans l'empire des mamelouks, Paris.

Wiet, 1937 Histoire de la nation égyptienne, IV, Paris.

Wiet, 1995 Histoire de la nation, IV, P. 436; Thourau, The Lion of Egypt, P. 103; Amitai Mongols and Mamluks (1260-1281), Cambridge.

Ziada, Mustafa, M, The Mamluk Sultans to 1293, in Book of: Setton, A History of the Crusades, II, Pennsylvania 1969.

المراجع المعربة

موير، وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن 1990، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة.

المراجع الأجنبية

Abou Khater, Fouad, Shagar al_Dorr et Baibars, Le Caire 1951.

Thourau, 1987 The Lion of Egypt Sultan Baybars, Trans. Holt, New York.

Ayalon, 1971 On One of the Works of Jean Sauvaget, IOS, I.

Popper, 1955 Egypt and Syria under the Circassian Sultans (1382 – 1468), Systematic Notes, vol. I, Los Angeles.

The Postal System in the Battles and Conquests of War in the Mamluk Era

*Anwar Odeh Al-Khaldi**

ABSTRACT

This paper deals with the role of the postal system in the battles and conquests of war in the Mamluk era. The Mamluk state consisted of scattered rings connected by an integrated postal system founded by Sultan Zahir Baibars. This system was launched in an era of rising attacks by Mongols and Crusades on the border of the Mamluk state. This situation necessitates that news should be brought from areas of the conflict to Qal'at AlJabal (the citadel) in Cairo at full speed to mobilize the army according to the news arrived. Research proved the extent of the success of this postal system in the victory of the Mamluks in several battles against the Crusaders and the Mongols.

Keywords: Postal System, The Mamluk State, Baibars.

*Department of History, Faculty of Arts, Al al-bayt University, Jordan. Received on 22/6/2014 and Accepted for Publication on 10/8/2014.